كامل كيلاني

قصص علمية

الصديقتان

الطبعة التاسعة



دار المعارف

رقم الإيداع		١٩٨٧ / ١٦٥١
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٩٣٦-٣	ISBN

١ / ٨٦ / ٢٩٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الصديقتان

١ - احتجابُ «أُمِّ خِداشَ»

كانَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» و «أُمُّ خِداشَ» صَديقَتَيْن حَميمين. وكانَتْ كِلْتاهُما تُحِبُّ الأُخْرَى، وتُخْلِص لها، وتَمْحَضُها الوُدَّ، ولا تَأْلو جُهْدًا فى إرْضائها، ولا تَضَنُّ علَيْها بعزيزٍ وَلا غالٍ، ولا تُخفى عنْها شَيْئًا من أَسْرارِها. وكانتا تـأْكلانِ - مَعًا - مِنْ صَحْفَةٍ واحِدَة (طَبَقٍ واحِدٍ)، وتَعيشانِ فِى بَيْتٍ واحدٍ. وقد نشَأَتا وترَعْرَعَتا وشَبَّتا مُتحالِفتَيْنِ عَلَى الوَفاءِ والحُبِّ.

أَمَّا «أُمُّ يَعْفُورَ» فهى كَلْبَةٌ صغيرةٌ جدًّا، وهى ظريفةٌ صفراءُ الإِهاب (الْجلْدِ)، أَنيقَةُ الْجلبابِ.



وأَمَّا صَديقتها «أُمُّ خِداشَ» فَقِطَّةٌ كَبيرةٌ، ذاتُ شعرٍ حريرىٍّ، ولها ذَنَبٌ يُغَطِّيهِ الشَّعَرُ الكثيفُ.

وفى ذاتِ يَوْمٍ احتجبَتْ «أُمُّ خِداشَ» عَنْ صديقتِها، ولم تأْتِ لتَحِيَّتِها، عَلَى عادَتِها. وبحثَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» فى سَلَّةٍ

«أمِّ خِداشَ» الَّتى أَلِفَتِ الرُّقادَ فيها ، فلم تَعْثُرْ لها على أَثَرٍ . فحارَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» ، ولم تَدْرِ سِرَّ احْتِجابِ صديقتِها العزيزَةِ ، وخشِيَتْ أَن يكونَ قد أَلَمَّ بها طائِفُ سُوءٍ .

فقالت «أُمُّ يَعْفورَ» الوفيَّةُ :

«إنَّ هٰذا ٱلْحَساءَ لا يزالُ غاليًا (شَديدَ الحرارَةِ) ؛ فَلْأَصْبِرْ قليلًا ، حتَّى يَبْرُدَ ، لعلَّ صديقتى «أُمَّ خِداشَ» تأْتى لِتَشْرَكَنِى فى الطَّعامِ .»

ثمَّ جلَسَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» عَلَى رِجْلَيْها الْخَلْفِيَّتَيْنِ ، وظلَّتْ تَسْتَنْشِقُ بُخارَ الْحَساءِ المُتَصاعِدَ بفِيها الأَسْوَدِ ، وتَتَأَمَّلُ فى الصَّحْفَةِ ، وهِىَ تَقُولُ لنَفْسها :

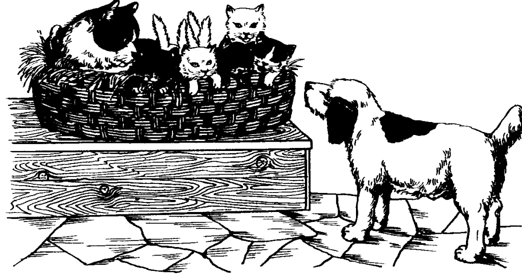
«لقد ذكرتُ الآنَ كلَّ شَىْءٍ ! فإنَّ «أُمَّ خِداشَ» أَخبرتْنى ذاتَ يَوْمٍ أَنها ستُفاجِئُنى – بَعْدَ أَيامٍ قلائلَ – مُفاجأَةً مُدْهِشةً . فيا ليتَ شِعْرِى : أَيَّةُ مُفاجأَةٍ أَعدَّتْها لى ؟»

واشتدَّ بـ«أُمِّ يعفورَ» القَلَقُ ، فسارَتْ حائرةً تبْحَثُ عن صاحبتِها فى كلِّ مَكان ، وتَشَمُّ أَرْكانَ البَيْتِ ومَخابئَهُ ، علَّها تَهْتَدِى إليْها

٢ ـ أَطفالُ «أُمِّ خِداشَ»

وانتهَى بها المَطافُ إِلَى غُرْفَةِ الغُسْلِ الصَّغِيرَةِ ، فَبَصْبَصَتْ (حَرَّكت ذنَبها) مَسْرُورةً بتَوْفيقِها ، ورفعتْ عَيْنَيْها إِلَى صُنْدُوقٍ فَوْقَ الرَّفِّ ، ثم حَيَّتْ صديقتَها مُبْتَهِجَةً ، قائلةً : «سُعِدَ يومُكِ يا «أُمَّ خِداشَ» .

لَقَدْ ساوَرنى القَلقُ عليكِ ، فماذا أَخَّرَكِ عنْ تَحِيَّةِ صديقتِكِ؟ وماذا تَصْنَعِينَ فَوْقَ هٰذا الرَّفِّ العالى ؟»



فقالتْ «أُمُّ خِداشَ» :

«إِنِّى مُفْضِيَةٌ إِليك بِأَمْرٍ يدعُو إِلَى الدَّهْشَةِ والعَجَبِ : لَقَدْ

فُوجِئْتُ مُفاجآت خَمْسًا ، وَرَأَيْتُ غَرائبَ خمسًا . . . . ! »

فلم تَفْهَمْ « أُمُّ يَعْفُورَ » شيئًا مِمّا تَعْنِيهِ ، ورفعَتْ فاها فِى الهَواءِ وهِىَ حائرةٌ ، فَسَمِعَتْ صوتَ طِفْلٍ صَغِير يَنْبَعِثُ فجأَةً من الصُّندوق مُجَمْجِمًا :

« مِيا . . . وْ ! مِيا . . . وْ ! أُمَّاهُ ! »

فأَدرَكَتْ « أُمُّ يَعْفُورَ » السِّرَّ فى احتجاب « أُمِّ خِداشَ » ، وظلَّتْ تقفزُ فى الغُرْفَةِ ، على ثَلاثِ أَرجُلٍ ، منْ فَرْط السُّرور ، كما تَفْعَلُ الكلابُ إذا اسْتَوْلى عليْها الطَّرَبُ والفرَحُ . ثم هنَّأَتْها بهٰذِهِ القِططِ العزيزاتِ . فقالتْ « أُمُّ خِداشَ » مزهُوَّةً فَرْحانَةً :

« أَلَمْ أَقُلْ لكِ إنها مفاجَآتٌ خَمْسٌ ؟ نعمْ . فإنَّ كلَّ واحِدٍ من هٰذِهِ الأَوْلادِ الخَمْسَةِ هُوَ مُفاجَأَةٌ سارَّةٌ . فانْظُرى بِرَبِّكِ إلَى هٰذِهِ الأُسْرَةِ العزيزَةِ ، التى ملأَتْ قَلْبِى سعادَةً وإعجابًا ! »

وظَلَّتْ « أُمُّ خِداشَ » تَلْحَسُ بِلسانِها جِلْدَ أَولادِها القِططِ ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ قائلةً :

« آهِ لو تَعْلَمينَ كيفَ فُتِنْتُ بِحُبِّ هٰذِهِ الأَطفالِ الصغيرةِ ! إنَّها زِينَةُ الدُّنْيا وبَهْجتُها ، ومَصْدَرُ سَعادَتِنا ومَبْعَثُ أُنْسِنا .

فَهَلُمِّى – أَيَّتُها الْحَبِيبُ – فانْظُرِى أَطْفالِىَ الأَعِزَّاءَ. فإِنِّى أَعْرِفُ مِقْدارَ شَغَفِكِ بالأَطْفالِ ، وحَدَبِكِ عَلَيْهِمْ . هَلُمِّى فاصْعَدِى إِلَىَّ – يا «أُمَّ يَعْفُورَ» – وتَسَلَّقِى هٰذا اللَّوْحَ الصَّغِيرَ.»

فوقَفَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» مُسْتَنِدَةً إلى الحائطِ ، وحاولَتْ أَنْ تَتَسَلَّقَ اللَّوْحَ فلم تَسْتَطِعْ – لِصِغَرِ جِسْمِها – وَلَمْ يَصِلْ فُوها إلى اللَّوْحِ . فقالَتْ لصاحِبَتِها : «مُحالٌ عَلَىَّ أَنْ أَصِلَ إلى هٰذا اللَّوْحِ ؛ فإِنَّ أُمِّىَ لَمْ تُعَلِّمْنِى : كَيْفَ أَتَسَلَّقُ ، كما عَلَّمَتْكِ أُمُّكِ . وَلَسْتُ أَدْرِى : ما الَّذِى حَبَّبَ إِلَيْكِ هٰذا المَكانَ المُرْتَفِعَ ؟

أَلَمْ يَكُنْ أَحْجَى بِكِ وأَهْدَى : أَنْ تَبْقَىْ فى سَلَّتِكِ الَّتِى تَنامِينَ فِيها ، إلى جانِبِ سَرِيرِى ؟»

فقالَتْ «أُمُّ خِداشَ» ، وهِىَ تهُزُّ رأْسَها مُتَعَجِبَةً مِنْ غَفْلَةِ صَدِيقَتِها : «شَدَّ ما تُخْطِئِينَ فى حُكمكِ ، يا «أُمَّ يعفُورَ». على أَننى أَلْتَمِسُ لكِ العُذْرَ ، لأَنَّكِ ما تَزالينَ طِفْلَةً ، غَيْرَ مُجَرِّبَةٍ . وأُحِبُّ أَنْ أُبَصِّرَكِ بِحَقِيقَةِ الأَمْرِ ؛ فإِنَّ القِطَّةَ الذكِيَّةَ الحازِمَةَ ، تَرَى مِنْ واجِبِها أَنْ تُخْفِىَ أَبناءَها – دائمًا – فى الظَّلامِ ، حتَّى لا تقعَ عليْهِمْ عينُ كائنٍ كانَ ، فِى الأَيامِ الأُولَى مِنْ حَياتِهِمْ .

على أَنَّنى لَنْ أَبْخَلَ عَلَيْكِ برؤْيةِ واحد مِنْهُمْ ، وهو أَجْملُهم شَكلًا ، وأَبهاهم مَنْظَرًا ؛ لأَنه مُرَقَّش بأَلْوانٍ ثلاثةٍ ، ولَيْس فى القِطاطِ أَجْمَلُ ممَّنْ يَجْمَعُ هٰذا العَدَدَ من الأَلْوانِ. وقد أَسْمَيْتُه : أَبا الشَّرْقِ . »

ونَهَضَتْ «أُمُّ خِداشَ» ووضَعتْ صَغِيرَها «أَبا الشَّرْقِ» على عُنُقِها – فى خِفَّةٍ ورشاقَةٍ – حتَّى لا تُزْعِجَهُ ، وقفزَتْ إِلَى اللَّوحِ ، وهِىَ رافِعَةٌ رأْسَها ، حَتَّى لا يَسْقُطَ مِنْها صَغِيرُها الحبيبُ .

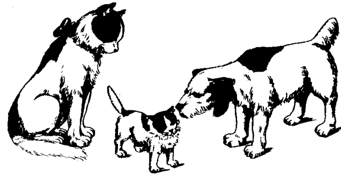
ثم وَضَعَتْهُ على اللَّوْحِ ، وهِىَ مَزْهُوَّةٌ تائِهةٌ بهِ أَمامَ صَدِيقَتِها ، وقالت لَها :

« كَيْفَ تَقُولين ؟ لا جَرَمَ أَنَّه جَمِيلٌ ! أَلَيْس كَذٰلِكِ ؟ »

فتراجَعتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» خُطْوَةً ، ونَظَرَتْ إِلَى «أَبى الشَّرْقِ» مَدْهُوشَةً تَعْجَبُ من رأْسِهِ المُسْتَدِيرِ ، وعيْنَيْهِ المُقْفَلَتَيْنِ ، وَجِسْمِهِ اللَّيِّنِ ، وذنَبه الرَّفيعِ الذِى يَخْتَلِجُ .

فقالتْ «أُمُّ خِداشَ» لصاحبتها ، وهِىَ تُرَبِّتُ – فِى رِفْقٍ وَحَنان – قِطَّتَها الصَّغِيرَةَ المُغْمَضَةَ العَيْنَينِ :

«أَلَسْتِ تَرَيْنَهُ بديعًا ، يا أُمَّ يَعْفُورَ ؟ »



فاقْتَرَبَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» مِنْ «أَبِي الشَّرْقِ»، وشَمَّتْهُ - وهِيَ مُرْتَجِفَةٌ مُنْفَسِحَةُ الأَرْجُلِ - وقالتْ خَجِلَةً:

«لا جَرَمَ أَنَّ «أَبا الشَّرْقِ» لطيفٌ، ولَعَلَّهُ يَزْدادُ جَمالًا حِين يَفْتحُ عيْنَيْهِ!»

٣ - غضَبُ «أُمِّ خِداش»

فقالتْ «أُمُّ خِداش» مَحْزُونَةً:

«كَيْفَ يَزْدادُ جَمالًا؟ إِنَّهُ سَيَفْتَح عينَيْهِ قريبًا. أَلا تَعْرِفينَ أَنَّ القِطط جَمِيعًا - بعْدَ أَنْ تُولَدَ - تَظَلُّ عَمْياءَ مُدَّةَ أَيَّامٍ ثَمانيةٍ أَوْ تِسْعَة؟ عَلَى أَنَّنى لا أَرَى ولدى فى حاجةٍ إِلَى مَزِيدٍ منَ الْجَمال، فَهُوَ عِنْدِى أَجْمَلُ ما فِى الأَرْضِ من الكائناتِ.

أَفاهِمَةٌ أَنْتِ ما أَقولُ، أَيَّتُها الصَّغيرَةُ الغافلة؟ فإِذا لم تَفْهَمى هٰذا الكلامَ، ولم تُؤْمِنى بهِ، فانْصَرِفى - من فَوْرِكِ - ولا تُرِينى وجْهَكِ بَعْدَ الْيَوْمِ!»

ثمَّ أَمْسَكَتْ «أُمُّ خِداش» بِمَوْلُودِها الْحَبِيبِ ، وقفزتْ إلى صُنْدُوقها مُغْضَبَةً مُحْنَقَةً .

وعجبَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» مِمَّا رَأَتْ عَجَبًا شَدِيدًا . ولَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ - فِى صاحِبَتِها - إِلَّا دَماثَةَ الخُلُقِ ، ولِينَ العَرِيكَةِ ، ولم تَرَ غضبَها إِلَّا فى هٰذا الْيَوْمِ .

وقد أَدهشها ما رأَتْهُ من تَلَهُّبِ عيْنَيْها ، وإِمْعانِها فى إِساءَتِها والسُّخطِ عَلَيْها ؛ وحَزَنَها حُزْنُ صَدِيقتِها . ثُمَّ قالَتْ لَها مُتَأَلِّمَةً :

«لا عَلَيْكِ - يا عَزِيزَتِى «أُمَّ خِداش» - فإِنِّى لَمْ أَتعمَّدْ إِغْضابَكِ ، ولَمْ أَقصِدْ إِلَى إِساءَتِكِ . وإِنِّى مُعْتَذِرَةٌ عمَّا فَرَطَ مِنِّى . وسَتَرَيْنَ : كَيْفَ أُحِبُّ تِلْكَ القُطَيْطاتِ العَزِيزاتِ ؟ »

ولٰكنَّ «أُمَّ خِداش» لَمْ تَهْدَأْ ثائِرَتُها ، فقالَتْ لها «أُمُّ يَعْفُورَ» :

«وددْتُ لَوْ تَعْلَمين ، يا صَدِيقَتِىَ العزيزةَ . . . »

فقاطَعَتْها «أُمُّ خِداش» صائحةً :

«لَسْتُ صَدِيقَةً لَكِ بَعْدَ الْيَوْمِ ، ولا أُحِبُّ أَن تتَّخِذِينى صَدِيقةً بَعْدَ الآنَ .

فقدْ صَحَّ ما قالتْهُ لِى أُمِّى : إنَّ الكلابَ لا يُمْكنُ أن تُخْلِصَ فِى صَداقتِها لِلْقِطَطِ .

وكيفَ تَصْفو قُلوبُنا ، ونَحْنُ لَمْ نُنَشَّأْ تَنْشِئَةً واحدةً ، ولَمْ نَدِنْ برَأْيٍ واحد ؟ »

فقالتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» :

«لا تَنْسَىْ أَنَّنا – عَلَى ذٰلِكَ – مِنْ أُسْرَةٍ واحِدَةٍ . »

فقالَتْ لها : «لَسْتُ أَشُكُّ فى ذٰلِكَ ، فإنَّ فَصِيلتَنا واحدَةٌ ، لأَنَّنا جميعًا مِنْ آكِلِى اللَّحْمِ ، ولٰكنَّ هٰذه الفَصِيلَةَ تَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ :

قِسْمًا : مُهَذَّبَ الْخُلُقِ ، وقِسْمًا : غَليظَ الطَّبْعِ . »

فصاحَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» مُعاتبَةً :

«ما أَحْسَبُكِ تَعْنِينَنِى بهٰذا التَّعْرِيضِ . »

فَقالَتْ لها : «ما عَنَيْتُ سِواكِ – يا «أُمَّ يَعْفُورَ» – فإنَّ الكِلابَ غيْرُ مُهَذَّبةٍ ، وقد عَرَفَتْهُم القِطاطُ جميعًا بسوءِ الأَدَبِ ، وغِلَظِ الطِّباعِ . وأَنَّى لكُمُ التَّهْذِيبُ ، ودَماثَةُ الْخُلُقِ؟ أَلَسْتُمْ أَنتم والثَّعالبُ الماكِرَةُ أَبناءَ أَعْمامٍ ؟ أَلَيْسَت الذِّئابُ القاسِيَةُ

الفتَّاكةُ — فى الغابات — من بنات أعمامِكمُ الأَدْنَيْنَ كذٰلِكِ ؟ »

فقالتْ « أُمُّ يَعْفُورَ » :

« لَيْسَ منْ خَطَئِى — أَيَّتُها العزيزَةُ — أَنْ تكُونَ الثَّعالِبُ والذِّئابُ من أبناءِ أَعْمامِنا ، وبنات عَمَّاتِنا !

على أَنَّنى أَذْكُرُ ما حَدَّثْتِنِى بهِ — ذاتَ يومٍ — إِذْ قرَّرْتِ أَمامِى أَنَّ الأَسَدَ من أَقاربِكِ ، وهُوَ — فيما أَعْلَم — وحْشٌ ضارٍ ، قاسِى القَلْبِ ! »

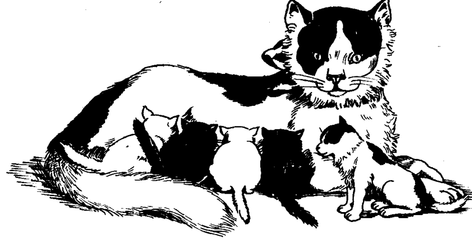
فقالَتْ « أُمُّ خِداشَ » :

« لستُ أُنكرُ هٰذا ، فإِن السَّبُعَ هو ابْنُ عمِّى بلا شك . وإِنى بذٰلكِ لفخورةٌ مزهُوَّةٌ ؛ لأَنه نبيلٌ عظيمٌ ، بعيدُ الهمَّةِ ، عزيزُ النفسِ . وَهُوَ ملكُ الحيوانِ ، وسيِّدُنا الآمِرُ الْمُطاعُ . ونحن من الأُمراءِ ، لأَننا منْ تلك الأُسرَةِ المُلوكِيَّةِ الساميةِ .

فلا غَرْوَ إِذا دانَ لنا النَّاسُ بالاحترام والإِجلال ، فلم يُطوِّقُوا أَعناقَنا بالسَّلاسِلِ والأَطْواق ، كما يفعلونَ معكم ، مَعْشرَ الكِلابِ ؛ لأَنَّنا وُلِدْنا وعِشْنا أَحرارًا ، لا سُلطانَ لأَحَدٍ علَيْنا ! »

وكأَنما ضَجِرتِ القُطَيْطاتُ الصَّغِيراتُ بهٰذا الحِوار الطويل ،

فانبعثَ مُواؤُها خافتًا من قاعِ الصُّندوق . فمالتْ «أُمُّ خِداشَ» إلى أطفالِها ، وقد اضْطَجَعَتْ على جانبها ، وفسحَتْ أَرجُلَها ، وجَمْجَمَتْ قليلًا . فسكتَ صِغارُها ، ومدُّوا أَلسنتَهم باحثين عن ثُدِيٍّ أُمِّهم - يَمْنَةً ويَسْرَة - وظلَّت أَلسنَتُهمُ الوردية الصغيرة تُطَقْطِقُ بصوتٍ خافت ، وظلت أُمهُم تلحسُهم ، وهم يَرْضَعون ، وهى حانيةٌ عليهم . ثُمَّ قالَتْ تداعِبُ «أَبا الشَّرْقِ» : «يا لكَ من شرِهٍ !



لقد ظَلِلْتَ تَطْعَمُ عشرَ دقائقَ كاملةً ، دون أَن تشبَعَ ! أَلا تتركُ ثَديِى لإِخوتِك الآخرين ؟ إن أُختَكَ المِسْكينةَ «أُمَّ الشَّرقِ» نحيلةٌ مهزولةُ الجسمِ ؛ وقد همَّنى ضعفُها ، وأَقلقَ بالى ، فهى لم تنطقْ بكلمة واحدة ، منذُ وِلادتِها إلى الآن .

وهى ليست بَكْماءَ فيما أرَى . فَما سِرُّ ضَعْفِها وهُزالها ؟ شَدَّ ما يُزْعِجُ الأُمَّاتِ مرضُ أَبنائِهنَّ ! »

٤ ـ حُلْمٌ مُزْعِجٌ

ونعودُ إلَى « أُمِّ يَعْفُورَ » :تلكَ الكلبةِ الوفِيَّةِ المُخْلِصَةِ ، لنَرى : ماذا حدثَ لَها ؟ لقد رَقَدَتْ عندَ بابِ الغُرْفَةِ الصغيرة ، وظلَّتْ تلتفتُ يَمْنةً ويَسرةً ، وتُحدِّثُ نفسَها قائلةً :

« إنَّ صديقتى « أُمَّ خِداشَ » ليست ـ فيما أَعْلَمُ ـ حمقاءَ . ولعلَّ سِرَّ انزِعاجِها ، ومصدرَ غضبها ، أنها لم تنلْ حظَّها من النَّوم المُريحِ ، فاضطربتْ لذٰلكِ ، وغُلِبَتْ على أعصابها . وسأَصبرُ عليها حتَّى تنزلَ ، فأَقفزَ إلى رقبتها ، لأُقبِّلَها ، وأُزيلَ كلَّ ما فى نفسها من عَتْبٍ ومَوْجِدَةٍ . »

وإنها لَتُحَدِّثُ نفسَها بذٰلكَ ، إذ طرَق سمعَها صوتٌ يناديها ! فوقفتْ « أُمُّ يَعْفُورَ » ، والتفتتْ إلَى صديقتها ، قائلةً :

« إلى اللِّقاءِ يا صديقتى العزيزةَ ! إن سيِّدىَ « الوليدَ » يُناديني « يا أُمَّ خِداشَ ». و لا بدَّ لى منْ تلبيةِ دعوتِه . فهل غفرتِ لى

زَلَّتى ، أَيتها الصديقةُ ؟ »

فلم تُجبْها « أُمُّ خِداشَ » بكلمةٍ واحدةٍ . فذهبتْ « أُمُّ يَعْفُورَ » محزونةً ، وتدلَّى ذَنبُها من الأَلَم ، واغرورْقت عيناها بالدمُوع .



أَما صاحبتُها « أُمُّ خداشَ » فقد شَغَلها أَمرُ أَبنائها ، فظلت تُرضِعُهُمْ ـ واحدًا واحدًا ـ حتى إذا أَفطروا وقفتْ متثائبةً ، رافعةً ذَيْلَها ، مقوِّسةً جسمَها . ثمَّ قالتْ لأَطفالها :

« لقد آنَ لكم أَنْ تناموا ـ أَيها الأَعزَّاءُ ـ فقد اشْتَدَّ بى أَلَمُ الجوعِ . ولا بُدَّ لى من الْتِماسِ نصيبى منَ القُوت . وقد سالَ لُعابى شَوْقًا إِلَى لَحْمِ الفأْرَةِ . ولا مَعْدَى لى عن جَولةٍ أَجُولُها فى مَخْزَنِ الغِلالِ لاصطياد فأْرةٍ . وسأَعُودُ إِليكم بَعْدَ أَنْ أُوَفَّقَ فِى مَسْعاى . وسترونَ أَنَّ لحمَ الفأْرة هو أَشْهَى طعامٍ فى الدُّنْيا . »

ورأَت سيِّدتَها « سُلافَةَ » الصغيرةَ ـ وهى تَجْتازُ المَطبَخَ ـ

فأسرعَتْ إليها تُداعبُها ، مُتَعَلِّقةً بثوبها الأنيق ، ثم وَضَعَتْ طَرَفَ لِسانِها فى الصَّحْفةِ – وقد جَوَّفَته فأصبحَ كالمِلعَقةِ – والتهمتْ كلَّ ما فيها من طعامٍ . ثم ذهبتْ إلى مَقْعَدٍ وَثيرٍ ، فرقَدَت عليه ، وقدِ التفَّ جسمُها وتحَوَّى ، حتَّى أصبحَ مِثلَ الكُرَةِ .

ولم تَنْسَ نصيبَها من الزينةِ ، ولا حَظَّها من التَّبرُّج والأَناقةِ ، فأَقبلتْ عَلَى شَعَرِها المُشَعَّثِ تُرَجِّلُه ، وعَلَى ذَيلِها المَنْفُوشِ تَتَعَهَّدُه بالعناية ، وتُمِرُّ لسانَها على خُصلات الشعر البارزَةِ فنَسَّقتْها . وَوقَفتْ فى مُنتصَفِ عملِها لتطرُدَ بُرْغوثًا خبيثًا كانَ يَمْشى على رَقبتِها ، واستأْنفتْ عملَها قائِلَةً :

« لم يَبْقَ علىَّ إلّا أَن أُنَظِّفَ وجهى ورأْسى . »

ثم بلَّلَتْ طرَفَ يَدِها البيضاءِ بلُعابِها ، ومرَّت بها على رأْسها تغْسِلُه ، وتَدْلُكهُ وتجفِّفُه . وهٰكذا نَسَّقَت هِندامَها ، وأَتَمَّتْ تَبَرُّجَها ، وأَصْبَح إهابُها ناعمًا ، ووجهُها نظيفًا ، فتأَهَّبتْ للخروج.

أَما صاحبتُها « أُمُّ يَعْفُورَ » فقد صَحِبتْ سيِّدَها « الوليدَ » فى رحلة طويلة ، وطافت معهُ خلالَ الْحُقولِ البديعةِ ، حتى أَمْسَيا ؛

فعادت مُتْعَبةً مجهودَةً ، وذهبتْ إلى مرقدها منهوكةَ القُوى ، لتنامَ .

وجرَتْ على عادتها – قُبَيلَ الرُّقادِ – فظلَّتْ تَحُكُّ فِراشَها بمخالبِ يدَيها ، ثم تدورُ على نَفْسها مرَّاتٍ عدَّةً . ثم اسْتسلمتْ للرُّقاد .

وكان نومُها – فى تلك اللَّيلةِ – مضْطربًا ، فقد ارتجفَ جسمُها – فى أثناءِ النومِ – واضطرب ذَيْلُها ، وظلَّ يَضرِبُ الأَرضَ ، وتصاعَدَت زفَراتُها وأنَّاتُها من الأَلم .

تُرى ماذا أَصابَ «أُمَّ يَعْفُورَ» ؟

لقد رأَت – فى نومِها – حُلْمًا مُزعجًا اضطرَبَتْ له أَعصابُها .

لقد أَبصرَتْ صديقةَ طُفولتِها «أُمَّ خِداشَ» وهى واقفةٌ أَمامَها ، وقد أَخرجَت مخالبَها الطويلةَ ، وهمَّتْ بأَنْ تَفْقَأَ بها عيْنَيْها ؛ فنهضتْ من رُقادِها مَذْعُورَةً خائفةً .

٥ – بَعْدَ أُسبوعٍ

وَمضى أُسْبوعٌ طويلٌ ، والقَطيعةُ مُسْتَحْكِمَةٌ بين الصديقتين . فقالتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» – ذاتَ يوم – وهى تحدِّثُ نفسَها :

«مَهْما تُمْعِنْ صَديقتى فى هَجْرها وغضبِها ، فإنى أُحِبُّها ؛ كما أُحِبُّ أَولادَها جميعًا ، وإنَّ شوْقى إلى رُؤيتهم لَشَديدٌ .»

ثم لَمَحَتْ «أُمَّ خِداشَ» سائرةً فى الطريق ، فقالت فى نفسِها : « هاها. ها هى ذى صديقتى خارجةً ، فماذا عَلَىَّ إذا ذَهَبتُ لِرُؤْيةِ قُطَيطاتِها العزيزاتِ ؟ »

ثم أَسرَعتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» إلى غرفتِهِنَّ الصغيرةِ ، ووَقفَتْ تحت صُندوقِهِنَّ ، وسَمِعَتْ مُواءَهُنَّ المُعْجِبَ المُطْرِبَ ، ورأَتهُنَّ خارجاتٍ إلى حافَةِ الصُّندوقِ .

فقالَتْ : «هاهى ذى عُيونُهُنَّ قد تَفَتَّحَتْ ، فأَصْبَحْن أَكثرَ جَمالًا ، وأَبْهَى مَنظرًا ممَّا كُنَّ منذ أُسبوعٍ . لَعَلَّكُنَّ تُرِدْنَ النزولَ ، أَيتها الصغيراتُ ! أَليس كذٰلك ؟ هاهو ذا قِطٌّ يُطِلُّ برأْسِهِ الكبيرِ ، ويَنْحَنِى خارجَ الصُّندوقِ ، فيُعرِّضُ ، نفسَه لخطَرِ السُّقوطِ على الأَرْضِ .»

ثمَّ صاحتْ – مذعورةً – تقولُ : «عُدْ إلى مَكانِكَ مِنَ الصُّندوقِ ، أَيها التَّاعِسُ ، فإنكَ تَسْتَهْدِفُ للْوُقوعِ .»

ولَمْ تكدْ تُتِمُّ جُمْلَتَها ، حتى هَوَى الصَّغيرُ مُتَدَحْرِجًا

كالْكُرَةِ ، وَسَقَطَ رأْسُهُ وَسَطَ إناءٍ مَمْلوءٍ ماءً . وبَذَلَ الصَّغيرُ كلَّ ما فى وُسْعهِ لإنقاذِ نفسِه منَ الغرَقِ ، فظلَّ يُحَرِّكُ يَدَيْهِ ورجْليهِ ، سابحًا - جُهْدَ طاقَتهِ - وهُوَ رافعٌ أَنْفَهُ الْوَرْدِىَّ . وسُرْعانَ ما أَدْرَكهُ الإِعْياءُ ، وتَسرَّبَ قليلٌ من الماءِ إلى فَمهِ ، فأَشْرَفَ على الْهَلاكِ ، وَغَوَّثَ يَطْلُبُ النَّجْدةَ صائِحًا :

« مِياوْ ! مِياوْ ! أَدْركينى يا أُماه ! أَغِيثينى يا أُمَّاهُ ! »

فقالتْ « أُمُّ يَعْفُورَ » :

« يا لَهٰذا الصَّغيرِ التَّاعِسِ الْمِسْكِين ! إنَّهُ - لا مَحالَةَ - هالِكٌ . فماذا أَصْنعُ لأُنْقِذَهُ ؟ »

ثُمَّ عنَّتْ لَها فِكْرَةٌ رَشيدةٌ مُفاجئةٌ ، فَقَفزَتْ إلى الإِناءِ مُسْرِعَةً . وكانَتْ « أُمُّ يَعْفُورَ » - كما أَسْلَفْنا - صغيرةً جدًّا ، فَوصلَ الماءُ إلى أُذُنَيْها ، ولٰكِنَّ مُرُوءَتَها أَبَتْ عَلَيْها أَنْ تترُكَ ذٰلكَ الْمِسْكينَ يتَعَرَّضُ لِلْمَوْت أَمامَ عَيْنَيْها ؛ فلم تُبالِ ما تسْتَهْدِفُهُ من خَطَرٍ ، وأَمْسكتْ برَقبةِ القِطِّ الصَّغير ، وقفزَتْ بهِ ، وهى تَحْمِلُهُ إلى أَرْضِ الغُرْفَةِ .

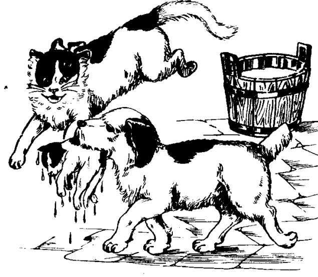
وظلَّ « أَبو الشَّرْقِ » يَعْطِسُ ويَرْتَعِشُ ، ورَقدَتْ « أُمُّ يَعْفُورَ »

الطَّيِّبةُ القلبِ إلى جانبهِ مُشْفِقَةً عليْهِ ، تُؤَسِّيهِ وتُدْفِئهُ ، وتَمْسَحُه بلسانِها اللَّطيفِ ، وتَحْنو عليهِ – حُنُوَّ الأُمَّاتِ عَلَى أَطْفالِها – وتُهَوِّنُ عليهِ ما لقِيَ منْ أَلَمٍ وهَمٍّ . وإنَّها لَتُعْنَى بهِ ، إذْ دَوَّتْ صَيْحَةٌ عاليَةٌ فى الْمَكانِ ، فتلفَّتَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» ، فرَأَتْ أَمامَها «أُمَّ خِداشَ» تَكادُ تَتميَّزُ منَ الغَيْظِ ، وهيَ تقولُ لها مُهْتاجَةً ثائرةً :

«ماذا تَصْنعينَ هُنا ، أَيَّتُها السَّفيهَةُ ؟»

فارْتاعَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» ، وامْتَلأَ قلبُها رُعْبًا .

فَقالتْ «أُمُّ خِداشَ» مُغْضَبةً : «كيْفَ جَرُؤْتِ على أن تَغْسِلِى وَلدِى ، منْ غير أَن تَسْتأْذِنينى فى ذلك ؟»



فقالتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» ، وهيَ تكادُ تَذُوبُ منْ فَرْطِ الْحَيْرَةِ والاضطراب :

«اِصْغَىْ إلىَّ ، يا «أُمَّ خِداشَ» ، فما أنا بِخادِعَتِكِ ، ولا بكاذِبَتِكِ الْخَبَرَ :

لقدْ سقَطَ وَلدُك الصَّغيرُ «أَبو الشَّرْقِ» فى حَوْضِ الماءِ ،

وكان يَقْفِزُ لاهِيًا فَوْقَ الصُّندوقِ وَ . . . . »

فقالَ «أبو الشَّرْقِ» ، وهوَ يبْكِي :

«لقَدْ صَدَقَتْكِ القَوْلَ – يا أُمَّاهُ – وقدْ هَوَيْتُ إلى حَوْضِ الماءِ ، عنْ غَيْرِ عَمْدٍ ، وأَشرَفْتُ عَلَى الْغرَقِ ، ولَوْلاها لأَصْبَحْتُ فى عِدادِ الْهالِكينَ . »

فاقْتَرَبَتْ مِنْها «أُمُّ خِداشٍ» ، وقدْ أَكْبَرَتْ لها تلْكَ المُروءَةَ ، وَشكرَتْ لها صنيعَها ، وقالتْ لها فى ضَراعةٍ وخُشُوعٍ :

«مَنْ لى بِمُكافأَتِكِ عَلَى هٰذه اليَدِ الباقيةِ ، الَّتى لَنْ أَنْساها لكِ مَدَى الْحَياةِ ؟ لقدْ أَسْلَفْتُ إليْكِ الإساءَةَ ، وأَبَيْتِ إلَّا أَنْ تَجْزِينى عليْها بالإِحْسانِ . فَهل تَغْفِرينَ لى زَلَّتى ، أَيَّتُها الصَّديقةُ الكريمةُ البارَّةُ ؟ »

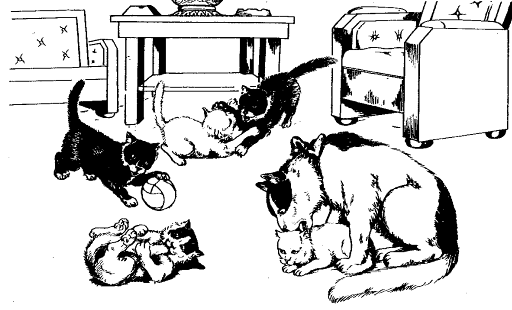
فامْتلأَ قَلبُ الْكَلبةِ فَرَحًا ، وَظَلَّتْ تَقْفِزُ منْ فَرْطِ السُّرُورِ ، قائِلةً : «لقدْ غَفَرْتُ لكِ كُلَّ شىءٍ .

على أَنَّنى لنْ أَنْسى أَنَّنى كنتُ سببًا – منذُ أَيَّامٍ – فى إِساءَتِكِ وإِيغارِ صدرِكِ عَلَيَّ . وَقد تمَّتْ سعادَتِى – الآنَ – بعْدَ أَن سادَ الصَّفاءُ قلبَيْنا ، وعُدْنا صَديقَتَيْنِ حَمِيمَين . »

وَأَسْرَعَتْ «أُمُّ خِداش» إلى صَغيرها – وكانَ يَرْتَجِفُ منْ شِدَّةِ البَرْدِ وهو مُلْقًى على أَرْضِ الغُرْفةِ – فحملَتْه بأَسْنانِها ، وَأَعادتْه إلى الصُّنْدُوقِ ، وَظلَّتْ هٰذه الكارِثةُ شُغلَها الشَّاغِلَ ، طولَ يَومِها .

٦ – بعد ثلاثة أَسابيعَ

وَمرَّتْ على هٰذا الحادِثِ أَسابيعُ ثلاثةٌ ، وَأَصْبحتِ الْخَمْسُ الصغيراتُ قادرةً على الَّلعِبِ فى غُرفِ البيتِ ، والْجَرْىِ فى فِنائهِ وسِرْدابِهِ .

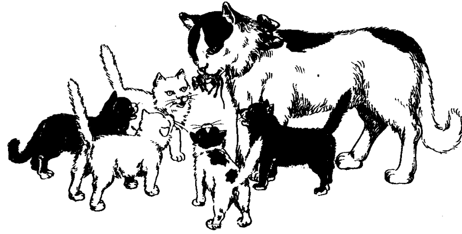


وظلَّتْ تَقْفِزُ وَتَتَدَحْرجُ ما شاءَتْ لها رَغَباتُها ، وتَشْتَبِكُ –بَينَ حين وآخرَ – فى مُناوَشاتٍ ظريفةٍ . ويُطاردُ بعضُها بعضًا ،

وَفْقَ ما تَشْتهى وَتُرِيدُ .

وكانَ «أَبو الشَّرْقِ» يلْعَبُ فى عُزْلَةٍ عنْ إخْوَتهِ . ويَدُورُ بِذَنَبِه ، كما تَدُورُ النَّحْلَةُ ، ويُداعبُ ذَيلَهُ ، وَيَنْظُرُ إليهِ مَدْهوشًا كلَّما رآه يَسْبِقُهُ فى أَثْناءِ جَرْيِهِ ، ثمَّ يَغْضَبُ منهُ ويَثُورُ ثائرُه عَلَيْهِ ، فيُنْشِبُ أَنْيابَهُ فى ذَيلهِ ويَعَضُّهُ ، ثمَّ يَصْرُخُ منْ فَرْطِ الأَلَمِ ، ويُسرِعُ إِلى رُكْنٍ من أَرْكانِ الغُرْفةِ ، نادِمًا عَلَى عَمَلهِ ، ثمَّ لا يَلْبَثُ - بعْدَ أَنْ يَنْسَى الأَلَمَ - أَنْ يَعُودَ إلى مِثْل ما صَنَعَ !

أَمَّا «خِداش» فقدْ كانتْ لا تُفارِقُ أُمَّها فى حَلٍّ وَتَرْحالٍ . وكانَتْ أُمُّها تَضَعُ يدَيْها البَيْضاوَيْنِ عَلَى رقَبة «خِداش» ، ثمَّ



تَحُكُّ «خِداش» أَنْفَها الصَّغيرَ الْوَرْدِىَّ بِأَنْفِ أُمِّها مُتَوَدِّدَةً

مُتَلَطِّفَةً . وَقَدْ سُعِدَتْ «أُمُّ خِداشَ» بِأَبْنائِها الأَعِزَّاءِ ، وكانَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» تُشاطِرُها هٰذِهِ السَّعادَةَ ، وتَفْرَحُ لِفَرَحِها .

وكانَتْ «أُمُّ خِداشَ» تَقْسُو – أَحْيانًا – على وَلَدِها «أَبِى غَزْوانَ» رَغْبَةً فى تَقْويمِهِ وتَهْذيبِه ، لأَنَّها تُحِبُّ أَن تُنَشِّئَ أَوْلادَها أَحْسنَ تَنْشِئَةٍ ، وتَطبَعَهُنَّ على غِرارِ القطاطِ المُهَذَّبَةِ ، وتُعَوِّدَهُنَّ النِّظامَ والطاعَةَ وحُسْنَ الأَدَبِ . ولا تأْلو جُهْدًا فى غَسْلِهن وتنظيفِهن دائِمًا .

وكان «أَبو غَزْوانَ» – على الْحَقِيقةِ – مَصْدَرَ عنائِها وأَلَمِها ؛ لأَنهُ شرِسُ الطَّبْعِ ، مُحبٌّ لِلْمُشاكَسَةِ ، ميَّالٌ إلى الأَذَى .

وقَدْ كانَتْ أُمُّهُ ترى فيهِ صورَةً كامِلةً لِعَمِّهِ «أَبى السَّنانيرِ» . وَهُوَ قِطٌّ هَرِمٌ ، يَقْضِى حياتَهُ فى المُخاطراتِ ، واقْتناصِ الطيورِ ، والْجَرْىِ على المَيازيبِ .

وكانتْ تُكافِئُ المُؤَدَّبَ بفأْرَةٍ ، تَصْطادُها لهُ !

٧ – تَفَرُّقُ الشَّمْلِ

وعادَتْ «أُمُّ خِداشَ» – ذاتَ مَساءٍ – من تَجْوالِها ، وفى

فَمِها فَأْرةٌ ، وقفزَتْ إلى صندوقِها فَرْحانةً ، وهى تُحدِّثُ نفسَها قائلةً :

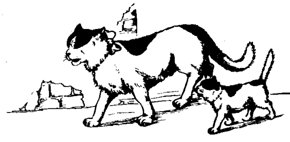
«ما أَشدَّ فرحَ أَوْلادى بهٰذهِ الهديَّةِ الثمينةِ ، وما أَشدَّ ابتهاجَهم بِهٰذِهِ الأَكْلةِ الفاخرَةِ ! »

وما إن وضعتْ رِجْلَها فى الصُّندوقِ ، حتى أَخرجَتْها مَذْهُولَةً حائرةً ، وَطفِقتْ تَعْدُو فى أَرْجاءِ البَيتِ كلِّه مَشدوهَةً وَلْهَى ، وتَصيحُ بصوْتٍ متهدِّجٍ مَبحوحٍ : «إلَىَّ يا أَوْلادى ! تُرى : أَىُّ حادِثٍ أَلَمَّ بِكم؟ إلىَّ يا أَبا الشَّرْقِ ! إلىَّ يا أُمَّ الشَّرْقِ ! إلىَّ يا خِداشُ ! » فلا تَسْمَعُ جوابًا .

وبحَثَتْ تلك الأُمُّ التَّاعسةُ المِسكينةُ – فى كلِّ أَرجاءِ البيتِ وَسراديبهِ ، ومَخابئِه وأَفْنِيَتِهِ ، وفى مَخْزَنِ الغِلالِ – عن أَوْلادِها ، فلم تَعْثُرْ لهم على أَثر . ثمَّ لَقِيَتْ «أُمَّ يَعْفُورَ» قادمةً عليها ، وهى مَحزُونةٌ كسيرةُ القلب ، مُطأْطِئةُ الرَّأْسِ ، فأَسرَعَتْ إليها تَسْأَلها عن أَوْلادِها ، فَجَمْجَمتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» فى لَهْجَةٍ حزينةٍ :

«لَمْ يَبْقَ من أَوْلادِكِ ، إلَّا «أَبو الشَّرْقِ» وَحْدَهُ . وهو يَبْكى تَحْتَ السُّلَّمِ ، أَمَّا إخوتُهُ فقد أُخِذوا جميعًا . وَقدْ رأَيتُ رَجلًا يَضَعُهنَّ فى

سَلَّتِهِ ويحملُهنَّ خارجَ البيتِ . فاشتدَّ غضبى وانزعاجى لذٰلكِ . وَهَمَمْتُ أَن أقفِزَ فى وَجْهِه ، وظَلِلْتُ أَملأُ البَيتَ نُباحًا ، وأَبْحَثُ عنك فى كلِّ مكان ،فلم أَهْتَدِ إِليك.



ثمَّ سَمِعتُ سَيِّدَتَنا تقول : إنَّ القِطاطَ قد حُمِلَتْ إلى دسْكَرَتِها الكبيرَةِ ، المَمْلوءَةِ بأَسرابِ الفأْرِ لِمُطاردتِها ، وسيُعنَى بها الْخَدَمُ العنايةَ كلَّها .

فخفَّف من وَجْدِ «أُمِّ خِداش» وجزَعِها ، ما عَلِمَتْهُ من حِرْصِ سيِّدَتِها على أَبنائِها القِطاطِ ، ولٰكِنَّها ظلَّتْ أَيَّامًا طِوالًا تَجْرِى فى الغُرَفِ والْحَدِيقةِ والطريقِ ، وهى تَموءُ فى حُزْنٍ وأَلَمٍ ، مُناديةً أَبناءَها بِأَسْمائهم ، وهىَ شَديدةُ الْوَجْدِ والأَسَى على فِراقِهم .

٨ – وِلادَةُ «أُمِّ يَعْفُورَ»

ومرَّتِ الأَيَّامُ تَتْرَى . وَذا صَباحٍ دخلتْ «أُمُّ خِداشَ» المَطبَخَ ، فاسترَعى بصرَها شيءٌ غريبٌ فيهِ . فاشتدَّ عَجبُها

ممَّا رأَتْ . وكانتْ لا تُطيقُ أَن ترَى أَقلَّ تَغَيُّرٍ يَحْدُثُ فى الدَّارِ ، فقوَّسَتْ ظهرَها ، وقالتْ - تُحَدِّثُ نَفْسها - مُتَعَجِّبَةً : «أَىُّ شىءٍ هٰذا ؟ إنَّها سَلَّةٌ جديدةٌ ! » وأَبَتْ أَنْ تَقْتَرِبَ منها ، مَخافَةَ أَنْ يُصِيبَها سُوءٌ . فتراجعتْ عنْها خُطُواتٍ إلَى الوراءِ ، ولبثَتْ تَرْقُبُها حينًا . فلما رأَتْها ساكنةً لا يَتَحرَّكُ فيها شىءٌ اطمأَنَّتْ نَفْسُها ، واقتربتْ مِنَ السَّلَّة ، وتسلَّقَتْ حافَتَها ، وأَطلَّتْ برأْسِها فيها ، فلمْ ترَ إلَّا حَشِيشًا يابِسًا مُعطَّرًا ، فلمْ تَدْرِ : ماذا يُرادُ بهِ ؟ وظلَّتْ تُفَكِّرُ فى ذٰلك ، فلم تهْتَدِ إلى حَلِّ هٰذا اللُّغْزِ الْخَفىِّ .

وإنَّها لغارِقَةٌ فى تفكيرها ، إذْ قَدِمَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» وحيَّتها قائلة :

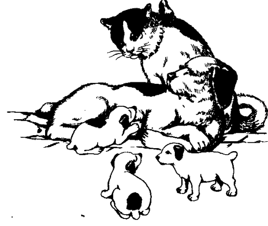
«أَلَا تَعْرِفينَ - يا أُمَّ خِداشَ - أَنَّ هٰذِهِ السَّلَّةَ ، هِىَ سَرِيرِىَ الْجَدِيدُ ؟ لقد هَمَمْتُ بالإِفضاءِ إلَيْكِ - مُنْذُ أَيَّامٍ - بهٰذا السِّرِّ يا صديقتِىَ العزيزةَ . »

فقالتْ «أُمُّ خِداشَ» : «أَىَّ سِرٍّ تَعْنِينَ ؟ »

فقالتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» : «اعلمى أَنَّنى سأُصْبِحُ أُمًّا بَعْدَ قليلٍ . وقد أَحضرتْ لى سيِّدَتى «سُلافَةُ» هٰذه السَّلَّةَ مَساءَ أَمْسِ

وقالتْ لى : «هاكِ سَريرَكِ الجديدَ ، أَيَّتُها الكلبةُ الأَمينةُ المُخْلِصَةُ ، ليستريحَ فيه أَولادُكِ الأَعزَّاءُ . وقد فَطَنَتْ تِلْكَ الفتاةُ الذَّكِيَّةُ إلى حقيقة أَمْرِى ، وأَدركتِ السِّرَّ الذى حَجَبْتُه عَنْ جميعِ مَنْ فى البيتِ. وقد كنتُ أُوثِرُ أَنْ أُفاجِئَهُمْ بِما يُدْهِشُهم ، ولٰكنَّهمْ أَدْرَكوا كُلَّ شىءٍ !»

ومرَّتْ أَيَّامٌ قلائلُ ، وامتلأَ البيتُ فرَحًا بولادة «أُمِّ يَعْفُورَ» . وكانتْ «سُلافَةُ» مبتهجةً بذٰلك ، وقد امتَلأَ قلْبُها سرورا ، حين رأَتْ أَمامَها ثلاثةَ أَجْسامٍ ضَخْمةً تملأُ قاعَ السَّلَّةِ .



وسُرْعانَ ما قدِمَتْ «أُمُّ خِداش» لتُهنِّئَ صديقتَها ، وتقولَ لها : «شدَّ ما بَهَجَتْنِى ولادتُكِ ، أَيَّتُها الصَّدِيقةُ الحبيبُ . ولٰكنِّى شَدِيدةُ العَجَبِ مِمَّا أَرى ، فإنَّ أَولادَكِ لا يُشْبِهونَكِ فى أَىِّ سِمَةٍ مِن سِماتِكِ ، حتَّى لَيُخَيَّلُ إلى مَن يَراهُمْ أَنَّهُمْ أَغْرابٌ عَنْكِ !»

ثم التفتتْ إلى أَحد أَبنائها قائلةً :

«لكَ اللهُ أيُّها الصَّغيرُ اللطيفُ ، ما أجملَ شَعَرَكَ الجَعْدَ ، وأُذنَيْكَ الطويلتينِ !

ماذا أسْمَيْتِهِمْ ، يا أُمَّ يَعْفُورَ . »

فقالتْ «أُمُّ يعفورَ» ووجْهُها يتطلَّق بشْرًا وسُرورًا :

«أمَّا هٰذا الْكُلَيْبُ السَّمينُ ، فقد أسْمَيْتُه «الواشِقَ» . وسيكون – فيما أتَوَسَّم – طيِّبَ القَلْبِ ، لا يُحِبُّ الْخِصامَ ، ولا يَجْنَحُ إلى الأذى . أمَّا تلكَ الكَلْبَةُ الجاثِمَةُ أمامَكِ ، فقد دَعَوْتُها «أُمَّ وازعٍ» . وأما ذٰلك الشَّيطانُ ، فقد أسميتُه «وثَّابًا» . وهو – فيما أحْدِسُ – مشاكسٌ .

فإن مخايِلَ الشَّراسةِ تبدُو عليه ، فهو – فيما يلوح – أخبثُ من قِردٍ !»

فقالت «أُمُّ خِداشَ» مُعابثةً مُداعِبةً :

«شَدَّ ما ظلمْتِ القِرْدَ . فَهلَّا قلتِ : إنه أخبثُ من إنسانٍ !»

٩ – مَرَضُ «أُمِّ يَعْفُورَ»

وكان الصغارُ يَطْعَمُونَ ، والصديقتانِ تنظرانِ إليهم ، وتَرْعَيانهم بعيونٍ كلُّها حُنُوٌّ وإخلاصٌ . ثم قالت «أُمُّ يعفورَ» :

« اِصغَىْ إلىَّ ، فقد حانَ وقتُ الاعتذارِ إليكِ من تلكِ الهفوة التى أَتيتُها حين ؛ منذُ فإنى أَرى أَنَّ صِغارى عُميانٌ أَيضًا . ولا أَرى فى ذٰلِكِ ما يَنْقُصُ من حُسْنِهِمْ وجَمالِهِمْ . بل إنى لأَراهم قدِ اْستوفَوْا غايات الجمالِ والرَّوْعةِ ! »

فقالتْ « أُمُّ خِداشَ » : « كُونِى عَلَى ثِقَةٍ أَنَّنِى قَدْ نَسِيتُ مَوْجِدَتى عليكِ ، مُنْذُ زمنٍ طويل ، وأَصبحتُ لا أَذكرُها قطُّ . وليسَ أَحَبَّ إلى نفسى من رؤيةِ أَطفالكِ يَلْعَبُونَ مع ولدى « أَبِى الشَّرقِ » . وسيَرى فيهم خيرَ رُفْقَةٍ : يأْنَسُ بهم ، ويرتاحُ إليهم . »

فشكرَتْ « أُمُّ يعفورَ » لصديقتها « أُمِّ خِداشَ » كَرَمَ نفسِها ، وصفْحَها عن الإِساءةِ . وأَخذتْ نفسَها – مُنذ ذٰلِكَ اليَوم – بتربيةِ أَبنائها ، والعنايةِ بأَمرِهم . ولَزِمَت فراشَها ، باذِلَةً كلَّ وُسْعِها فى السَّهرِ على أَطفالِها ، وتَعَهُّدِهم بكلِّ ما يحتاجون إليهِ ، شأْنُ الأُمَّات دائمًا . وأَصبحتْ لا تفكرُ فى التَّجوالِ والْجَرْىِ ، وآثَرَتْ أَن تتعَهَّدَ أُسْرَتَها على كلِّ شأْنٍ من شُئُونها .

ولمَّا فَتَح الكلابُ الصِّغارُ أَعْيُنَهم – للمرَّة الأُولى – كانتْ

أُمُّهمْ فى شُغْل شاغل عن الفرح بهٰذهِ المُفاجأَةِ السارَّة ، لأَن المَرَضَ – فِى ذٰلك اليوم – قد حلَّ بها ، ونَهكَ قُواها . وقد شكَتْ إلى صديقتها «أُمّ خِداش» – حينَ قدِمَت لزيارَتِها فى ذٰلك الصباحِ – ما حلَّ بها من السَّقامِ ، وقالتْ لها فى لهجَةٍ حزينةٍ :

«لَقَدْ قَضيتُ – أَمسِ – ليلةً مُفَزِّعةً هائلةً ، ولا أَدرى : ماذا أَصابنى ؟

وقد عافتْ نفسىَ – منذ ظُهرِ أَمسِ – وعجزتُ عن تعهُّدِ صِغارىَ الضِّعافِ . ولستُ أَدرى : كيفَ يَؤُولُ أَمرُهم ؟ »

فقالت «أُمُّ خِداش» : «إن شِفاءَك ميسورٌ ، فقد خلق اللهُ لكلِّ داءٍ دواءً ، ولكلِّ مرضٍ علاجًا شافيًا . ولعل أُمَّكِ قد عَرَّفَتْكِ بذٰلكِ النباتِ القصيرِ ، الذى ينبُتُ على حافَة الطرقِ ، وحَدَّثَتْكِ عن فائدتِهِ المُحقَّقة . فإِنَّ فيه من الخواصِّ العجيبةِ ، ما يَكْفُل لكِ الشفاءَ العاجلَ ، إن شاءَ اللهُ . »

فقالت «أُمُّ يعفورَ» : «إِنى مُلَبِّيةٌ نصيحتَكِ ، فهل تَتفضَّلين بحِراسَةِ أَولادى ، حتى آ كُلَ من ذٰلك الدواءِ ؟ »

فقالت «أُمُّ خِداشَ» : «حبًّا وكرامةً لكِ ، يا أُمَّ يَعْفورَ .»

وقد خفَّ أَلمُ الكلبةِ ، بعدَ أن أَخذتْ بنصيحةِ صاحبتِها ، وشكرتْ لها حسنَ رأْيها. ثم ودَّعتْها «أُمُّ خِداشَ» لتُنجزَ بعضَ شأْنِها .

ولما جاءَ وقت الظهر، طفِقَتْ «أُمُّ خِداشَ» تلْحَسُ ولدَها «أَبا الشرْق» — بعد أن أَتَمَّ غَداءَهُ — ثم أَسرعَتْ إلى صاحبتِها ؛ فحزنَها ما رأَته عليها من أَماراتِ الضعفِ والأَلمِ . فقد وجدَتْها مطروحةً على الأَرضِ ، لا حَراكَ بها ؛ وقد جَمَدَت سُوقُها ، وسكن ذَنَبُها ؛ فأَصبحت إلى المَوتِ أَقربَ منها إلى الحياةِ !



فَصرَخَتْ مُتأَلِّمَةً :

«ويلاهُ ! لقد ماتتْ صديقتى الحميمُ !»

فتحركتْ «أُمُّ يعفورَ» حركةً صغيرةً ، وهى ترتعشُ ، وتتنفَّسُ بجَهْدٍ جهيد. فسأَلَتْها «أُمُّ خِداشَ» فى صوتٍ مَمْلوءٍ حُنُوًّا وإشفاقًا :

« أَلم يُجْدِ الدواءُ الذى وصفتُهُ لكِ ، يا عزيزتى ؟ »

فقالَتْ « أُمُّ يَعْفُورَ » بِصَوْتٍ خافتٍ ، وقد كادَتْ تَخْنُقُها العَبراتُ :

« كلَّا – يا أُمَّ خِداشَ – لقد انتابتْنِى حُمَّى خبيثةٌ ، وأَصبحتُ أُحِسُّ أَنَّ فَمى يَلتَهِبُ . وزادَ حُزْنى ، وَأَقلَقَ بالى : ما سمعتُهُ فى هٰذا الصَّباحِ ! »

ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ كَلامَها قائلَةً : « آهِ لَوْ تَعْلَمِينَ وقْعَ تلْكِ الكارِثةِ المُفاجئةِ ! لقَدْ جاءَ سيِّدى – فى هٰذا اليومِ – وما إنْ رآنى ، حتَّى قالَ : إن « أُمَّ يَعْفُورَ » مصابةٌ بداءِ الكلْبِ ، ولا بُدَّ منْ إقْصائها .

فامْتَلأَ قلْبِى ذُعْرًا حِينَ سَمِعْتُ هٰذا الخبرَ الهائلَ ، وانقضَّ عَلَى قَلبى انقضاضَ الصَّاعِقَةِ . وقَدْ كانَتْ إحْدَى بنات أَعمامى مصابةً بهٰذا الدَّاءِ الوَبيلِ ، وأَخذها الرِّجالُ وقَتلوها . ولَسْتُ أَشُكُّ فى أَنَّ مصرعى وشيكٌ ، وأَنَّنى مُلاقِيَةٌ مِثْلَ هٰذه الخاتمةِ المُفزِّعَةِ .

فكيفَ يعيشُ أَطفالِىَ المَساكينُ ؟ »

فقالَتْ « أُمُّ خِداشَ » ، والدُّموعُ تَتَرَجَّحُ فى مآقِيها : « هَوِّنِى

عَلَيْكِ — يا أُخْتاهُ — ولا تَتَعَجَّلِى الحوادِثَ . فلعلَّ السَّيِّدَ واهِمٌ فى حُسْبانِهِ ! »

ولَمْ تُتِمَّ قولَها ، حتى جاءَ رَجُلٌ بَيْطَرِىٌّ ، قَوِىُّ البَأْسِ ، وفى يدِهِ حَبْلٌ . فاقتربَ من « أُمِّ يَعْفورَ » ليَرْبُطَها بالْحبْلِ ، فَعَلا نُباحُها ، وكشَّرَتْ عن أَنْيابِها الْمُحَدَّدَةِ ، وصاحتْ مُتَوَعِّدَةً :



« الْوَيْلُ لِكُلِّ مَنْ يَمَسُّنِى بِسُوءٍ ! »

فقالت لها « أُمُّ خِداشَ » مُتَوَسِّلَةً ضارعةً :

« بِرَبِّكِ لا تَتمادَىْ فى عِنادك ، فإنهُمْ أَقْوَى مِنَّا ، أَيَّتُها العزيزة . ولَيْس منَ الْحَزامَةِ أَنْ نَلِجَّ فى مُكابَرَةٍ لا تُثْمِرُ إلَّا شرًّا . »

فَأَذْعَنَتْ « أُمُّ يَعْفُورَ » لنصِيحَةِ صاحِبَتِها ، وأَسْرَعَتْ إلى أَوْلادِها ، فقبَّلَتْهم جميعًا ، وأَلْقَتْ عَلَيْهم آخِرَ نظرة ، مُوَدِّعَةً !

ثُمَّ جَرَّها الرجُلُ ، بَعْدَ أَنْ شَدَّها إلى حَبْلِهِ ، وكَمَّ فاها بالْحَديدِ ، فسارَتْ تَتْبَعُه مَكْلُومةً حَزِينةً

١٠ – مُرْضِعَةُ اليتامَى

وخرجتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» تَتْبَعُ الطَّبيبَ راغِمَةً ، ومشتْ «أُمُّ خِداشَ» فِى أَثَرِها ، حتَّى بلغتْ فِناءَ البيتِ ، وقلْبُها مُنقَبِضٌ حزينٌ ، ثمَّ ودَّعتْها بكلماتٍ تفيضُ إخلاصًا وحُنُوًّا ، وتَمَنَّتْ لها الرُّجوعَ سالِمَةً .

ولمَّا عادَتْ «أُمُّ خِداشَ» إلى الْبَيْتِ ، سَمِعَتِ الْيَتامَى الثَّلاثَةَ – أبناءَ «أُمِّ يعفور» – يَعْوُونَ عُواءً مُرْتَفِعًا ، ويُنادُونَ أُمَّهم ، مُسْتَوحِشينَ لِبُعْدِها عنهم . فوقفتْ «أُمُّ خِداشَ» تُنْصِتُ إلى عُوائهم الحزينِ لحظة ، وتُفَكِّر فيما تفعلُه ، لتُؤَسِّيَهُمْ وتُسَلِّيَهِمْ ؛ ثُمَّ اندفعتْ إلى صُندوقها ، وأَمسكتْ ولدَها من عُنُقِه ، وحملَتْهُ إلى سَلَّةِ الكِلابِ الصِّغارِ ، قائِلَةً :

«لقد أَصبَحَ لى أَولادٌ أَربعةٌ ، بعد أَنْ لم يَبْقَ لى غيرُ واحدٍ ؛ وسأَلْقَى – فى سبيلِ تربيتهم – من الْجَهْدِ والتَّعبِ شيئًا كثيرًا . ولٰكنَّ المُروءَةَ والرحمةَ تقضِيان علىَّ أَن أَحتملَ هٰذا الواجبَ ، راضيةً ، قريرةَ العين ؛ فليس لى فى تركهم من حيلةٍ على أَىِّ حال !»

وظلَّتْ «أمُّ خِداشَ» تَلْحَسُ الكِلابَ الثَّلاثَةَ، وقدْ أقْبَلْنَ على طِفْلها «أبى الشَّرْقِ» يَشْمَمْنَهُ وهُنَّ مَحْزوناتٌ. فقالت «أمُّ خِداشَ» لِوَلَدِها:

«إنَّكَ يا «أبا الشَّرْقِ» أكبرُ منهُنَّ سِنًّا، فَلْتكُن لهُنَّ مَثلًا صالحًا يُقْتَدَى بِهِ ويُهْتَدَى. ولَيسَ لى أُمنِيَّةٌ أَشْهَى إلى نَفْسِى من أنْ تَعِيشُوا جميعًا — فى وِفاقٍ — حياةً سعيدةً، وأنْ تُصْبِحوا جميعًا إخْوَةً مُخْلِصين، وأَصْفِياءَ مُتحابِّين؛ فَهَلْ وَعيْتَ هٰذه النَّصِيحةَ، يا أبا الشَّرْقِ؟»

ثُمَّ الْتفَتَتْ إلى اليَتامَى، قائلةً: «يلُوحُ لى أنكم جائعونَ!»

ونظرتْ إلى وَلدِها، وقالتْ لهُ: «أمَّا أنتَ—يا أبا الشَّرْق— فقدْ كبِرَت سِنُّكَ، وأَصْبَحْتَ قادرًا علَى الأَكْلِ مَعِى فى صَحْفَتِى، مُنْذُ الْيَوْمِ.»

ثُمَّ رقَدَتْ «أمُّ خِداشَ» قريبًا من اليتامَى، وظَلَّتْ تُرْضِعُهم، حتَّى ارْتَوَوْا جميعًا من لَبَنِها الدَّافِئِ الدَّسِمِ، فناموُا قَريرِى الأَعْيُنِ، مُرْتاحِى القلُوب. وكانَ «أبُو الشَّرْقِ» يَنْظُر إلَيْهِمْ مُعْجَبًا مَسْرُورًا، فهَمَستْ أُمُّهُ فى أُذُنِهِ قائلةً: «تعالَ — ياولَدى —

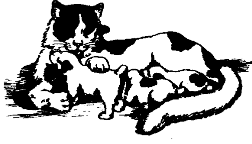
عَلَى أَطْرافِ أَقدامِكَ – فى غير جلَبَة ولا ضَوْضاء – حَتَّى لا تُوقِظَهُمْ .

وهَلُمَّ ، فالْعَبْ قَلِيلًا ، لِتُرَوِّحَ عنْ نَفْسِك . »

فسارَ معَها «أَبُو الشَّرْق» حتَّى بَعُدَ عن غُرْفَةِ اليَتامى. وقالَتْ «أُمُّ خِداش» فى نَفْسِها : «ما أَرْوَحَ عَهْدَ الطُّفولَةِ وأَجملَهُ ! وما أَسرَعَ ما يَنْسَى الأَطْفالُ هُمومَهُمْ وأَحزانَهُم بأَيْسرِ شَيءٍ ! »

وَلَمَّا حَلَّ الْمَساءُ ، جاءَتْ « سُلافَةُ » ووالِدُها ، وهما يَمْشِيانِ – فى خِفَّةٍ وحذرٍ – حتَّى لا يُزْعِجا الْيَتامَى الكلابَ الصغارَ. فقالتْ «سُلافَةُ» ، وقد وضعتْ إِصْبَعَها على فَمِها : «صَهٍ ! صَه (لا تَنْبِسْ بِبِنْتِ شَفَة) ! »

وكانتْ هٰذِهِ الأُسْرَةُ المُتَحابَّةُ – المُؤْتَلِفَة من ثَلاثَةِ الْكِلابِ والْقِطَّتَين – راقدةً جَنْبًا إِلى جَنْبٍ .



وكانَ أَنْفُ «الواشِقِ» ظاهِرَ السَّوادِ ، وقد بَدا مِنْ بَينِ ذِراعَيْ «أُمِّ خِداش» وهِيَ مُسْتَغْرِقَةٌ فى نَوْمِها الهنِيءِ ، وأَحلامِها اللَّذِيذَةِ.

وكان رأْسُ «وثَّابٍ» – الْجَعْدُ الشَّعَرِ – مُوَسَّدًا رقبةَ «أَبى الشَّرْق»

فَجَمْجَمَتْ «سُلافَةُ» قائِلَةً :

«يا لَها من قِطَّةٍ كريمةِ النَّفْس ، مَوْفُورَةِ الْحَنانِ !»

١١ – اجتماع الشَّمْلِ

ومرَّ على غيابِ «أُمِّ يَعْفُورَ» خمسةَ عَشَرَ يَوْمًا .

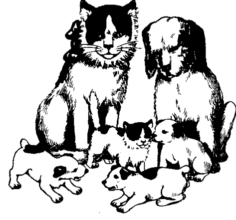
وكانتْ صديقتُها «أُمُّ خِداشَ» دائمةَ الْحَنينِ إِلَيْها ، وقدِ اشْتدَّ شَوْقُها إلى رؤيتها ؛ وزادَ همُّها وَوَحْشتُها ، لانْقِطاعِ أَخبارِها عَنْها . وكانَتْ «أُمُّ خِداشَ» تسير فى الطريق – كلَّ صباحٍ – إِلَى مسافةٍ بعيدةٍ وهى تُنادى بصوتٍ مَحْزونٍ تكادُ تَخْنُقُه العبَراتُ : «إلىَّ ، يا «أُمَّ يَعْفُورَ» ! إلىَّ أَيَّتها الْحَبيبُ النَّائيةُ !»

فلا تَسْمَعُ – لِنِدائها – صَدًى، ولا يُلَبِّى دُعاءَها أَحَدٌ؛ فتعودُ إلى بيْتِها ، مَهْمُومَةَ الْقَلْبِ كاسفةَ البالِ !

فلمَّا جاءَ الْيَوْم السَّادسَ عَشَرَ ، خَرَجَتْ «أُمُّ خِداشَ» – عَلَى عادَتِها فى الصَّباحِ – وقطعتْ فى الطَّريقِ شَوْطًا بعيدًا ، وسارتْ فيهِ – جَيْئَةً وذَهابًا – مَرَّتَينِ ، ثُمَّ عادتْ إلى سَلَّةِ الصِّغار يائسةً. وإِنَّها لتَتَعَهَّدُهُمْ بعنايتها إذ طرق مَسْمَعَها صوتٌ ينبعثُ منْ مَسافَة

بعيدةٍ ، فَتَبَيَّنَتْ فيه صوتَ صديقَتِها «أمِّ يَعْفُورَ» . فَسَرَتْ فى جَسَدِها رِجْفَةُ الفَرَحِ والدَّهْشَةِ ، واندفعتْ مُسْرِعَةً من السَّلةِ ، وهِىَ تَصِيحُ مُرَحِّبَةً بصديقتِها الحبيبِ ! وتبعَها الأَطْفالُ – جُهْدَ طاقَتِهِمْ – وظلوا يَسْقُطُون وَيَنْزَلِقُونَ ، مُتَعَثِّرِينَ فى سَيْرِهِم ؛ وقد صاحتْ فيهمْ «أُمُّ خِداشَ» :

« ضاعِفُوا مِنْ عزائمكم ، وقَوُّوا من هِمَمِكم ، فقد دانَيْناها . »



وما كادُوا يَبْلُغُونَ البابَ الخارجيَّ ، حتى رأَوْا «أُمَّ يَعْفُورَ» أمامَهُمْ ، فصاحتْ «أُمُّ خِداشَ» مُرَحِّبَةً بصاحبتِها ، وهِىَ تَقْفِزُ من شِدَّةِ الفَرَحِ :

«لقدْ طالتْ غَيْبَتُكِ ، واستَوحَشْنا لبُعْدِكِ ، فَما أَسْعَدَنا بلقائِكِ !»

وعَجَزَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» عن الكلامِ ، مِنْ فَرْطِ السُّرورِ ، وبكتْ مِنْ شِدَّةِ الفرحِ ، وسالَتْ عَلَى فَمِها دَمْعَتانِ كبيرتانِ . وعَلا نُباحُ أَطْفالِها الصِّغارِ . وقد التفُّوا حولَ أُمِّهم العزيزةِ ،

والْتمعَتْ عُيونهم سُرورًا وغِبْطَةً ، وتحرَّكتْ أذنابُهم الصَّغيرَةُ بهجةً وحُبورًا ، وكان «أبُو الشَّرْق» يَمْزُجُ مُواءَهُ القَوِيَّ بنُباح الكلاب الصِّغار الفَرْحانَةِ !

١٢ – حِوارُ الأُسْرَةِ

ورأت «أُمُّ يَعْفُور» أطفالَها الصغارَ قد امتلأت جُسومُهم قوةً ونشاطًا ، وسَمِنَتْ أجسادُهم ، فلم تكدْ تصدِّقُ ما رأتهُ عيناها ، فقالت مدهوشةً : «كيف تَجِدُكَ يا «وَثَّابُ» ؟ ألستَ على أَحسنِ حال من الصِّحة والعافية ؟

فخبِّرني : هل كنتَ – فى أثناء غَيْبَتى – عاقلًا رزينًا هادئًا ؟

وأنتِ ، يا عزيزتى «أُمَّ وازعٍ» ، كيف قضيتِ أيامَكِ بعيدةً عنى ؟

وأنتَ يا «واشقُ» : هل فكَّرْتَ فى أُمِّكَ التى أوحشها بعادُكَ ؟ إنى أراك ضخمَ الجثةِ ، مَمْلوءًا صحةً وقوةً !»

وما دَخَلَتِ الأُسْرَةُ البيتَ ، حتى أقبلتْ «سُلافَةُ» مرحِّبةً بعودة «أُمِّ يعفور». وما رأتْها ، حتى حملتها بين ذراعَيْها ؛ ولٰكنَّ «أُمَّ يَعْفُور» كانتْ مَمْلوءةً شوقًا إلى الائتناس بأَولادها ، فلحستْ

وجنةَ «سُلافةَ» شاكرةً لها عطفَها ، وحَدَبَها عليها . ثم انفلَتَتْ من بينِ ذراعَيْها ، قافزة إلى الأرض ؛ وسارت مع صِغارها صَوْبَ السَّلَّة ، ثم سأَلتهم متعجِّبةً : «لقد كنتُ فى قلقٍ دائم ، وهَمٍّ مُقيمٍ ، خوفًا عليكم . فمن الذى تعهَّدَكم بالتغذية والعناية ؟»

فقالوا لها فى صوتٍ واحد : «إنَّما فَضْلُ ذٰلِكِ عائدٌ إلى أُمِّنا «أُمِّ خِداشَ» التى كانت تُغذِّينا بلبنها ، وتُدَلِّلُنا ، وتلحسُنا بلسانها ، وتُحدِّثنا عنكِ أَطيبَ الأَحاديثِ المُطَمْئِنَةِ السَّارَّةِ ، وتؤكدُ لنا أَنكِ عائدةٌ من رحلتك ، بعد زمن قليل !»

فقالت «أُمُّ يَعْفُورَ» لصاحبتها «أُمِّ خداش» :

«هٰذا كثيرٌ ، أَيتها الأُختُ الحنونُ ؛ فقد أَربَيْتِ فى الفضل ، وتجاوزتِ فى الكرم ، حتى هُزِلَ جِسْمُكِ ، وسَمِنتْ أَجسادُ أُولٰئِكِ الشَّرِهِينَ ! والْحَمد لله الذى أَقرَّ عينى برؤيتكم ، وقد جاءَ دَوْرى لأُعَنَى بكِ الآن !»

فقالَتْ «أُمُّ خِداشَ» : «لا حاجةَ بكِ إلى الشُّكرِ لِى عَلَى ما فَعَلْتُه ، فإنَّنى لَمْ أَزِدْ عَلَى أَنْ فعَلْتُ الواجبَ . فَدَعِينى من هٰذا ، وخبِّرِينِى : أَىُّ مَرضٍ ذٰلك الذى أَلَمَّ بكِ ؟»

فقالَتْ «أُمُّ يَعْفُورَ» :

«لَقَدْ كانَ السَّيِّدُ واهِمًا فى حُسْبانِه ، حينَ ظَنَّ أَنَّنى مُصابَةٌ بداءِ الْكَلْبِ ، وقدْ نَجَوْتُ منَ الْخَطَرِ ، وَتَمَّ لِىَ الشِّفاءُ بِحَمْدِ الله ، واجْتمعَ الشَّمْلُ الشَّتِيتُ ، وأَصْبَحْنا – كما كُنَّا – بعدَ أَنْ كِدْنا نَيْأَسُ منَ اللِّقاءِ . وإِنى لأَعُدُّ هٰذا اليومَ أَكْبرَ أَعْيادى ، فقد تَمَّتْ لِى فيه أَمانِىَّ ، وتَحَقَّقَتْ أَحْلامى . »

فقالتْ «أُمُّ خِداشَ» وهى مُبْتَهِجَةٌ :

«وإِنى لأَراهُ – كذٰلِكَ – أَسْعَدَ أَيَّامِ حَياتِى ! »

فهتَفَ الأَوْلادُ الأَرْبَعَةُ الصِّغارُ ، وَهُمْ يَتَدَحْرَجونَ على الأَرْضِ مِنْ فَرْطِ السُّرُورِ ، وَيَقْفِزُونَ قَفَزاتِ الفَرَحِ والابْتِهاج ، حَوْلَ الصَّديقتَيْنِ ، وقالوا فى صوْتٍ واحِدٍ :

«وإِنَّنا لنَرَى أَيضًا أَنَّ هٰذا اليَوْمَ هُوَ أَسْعَدُ أَيَّامِ حياتِنا جميعًا ! »

مكتبة الكيلانى للأطفال

... وهكذا نجحتَ — يا أستاذُ — في أن تُحَبِّبَ إلى الأطفالِ مكتبتَهُم وتُغرِيَهُم — بالمُطالعَةِ[١] . ولئنْ أدركَ الأطفالُ — برياضِ الأطفالِ — مُراداً بعيداً ، لقد فتحتَ لهُمْ — بمكتبةِ الأطفالِ — فتحًا جديداً . أدركتَ أربَ نفوسِهم ، وأبدلتَهم أُنسًا من عُبوسِهم ، وهِجْتَ لِلمعالى أشواقَهم ، وحسَّنْتَ لُغتَهُم وأخلاقَهُم[٢] . والأستاذ الكيلانى مُنشئُ مكتبةِ الأطفالِ أديبٌ عالَمِيٌّ جديرٌ بما يَهدِفُ إليهِ مِنْ نبيلِ الأغراضِ[٣] .

وإنه ليَسُرُّنى — إذْ أتابعُ مع التَّقديرِ هذا الجُهْدَ العِلْمِيَّ المتواصلَ — أن ألاحظَ مِقدارَ العِنايةِ التى تبذُلونَها فى هذا السَّبيلِ ، والفائدَةَ الَّتى تعودُ على النَّشْءِ مِنْهُ ، بتهيئةِ أذهانِ الأطفالِ وعُقولِهِمْ لِتقبُّلِ خيرِ الأفكارِ والمَعانى ، وتقديمِها لَهُمْ على مثلِ هذهِ الصُّورةِ الطَّريفةِ[٤] . فاللهُ يكافئُك علَى ما قدَّمْتَهُ لِلعَرَبيَّةِ مِنْ روائِعِ أدبٍ ، تُضيفُ إلى كُنوزِها كُنوزًا[٥] . وإنِّى وقد تتبَّعْتُ هذا المَجْهودَ القيِّمَ المُتَّصِلَ لا يَسَعُنى إلّا الإعجابُ بما تُساهِمُونَ به فى سَدِّ نَقْصٍ يَشْعُرُ بِهِ جميعُ الآباءِ فى تعليمِ أطفالِهِمْ[٦] . فشكرَ اللهُ لكَ ما هدَفْتَ إليه مِنْ تَنشِئَةِ الطِّفل مَشْبوبَ الشَّغَفِ بالقِراءةِ والدَّرْسِ ، موفورَ الحظِّ مِن مَتاعِ الفِكْرِ ، مُسْتقيمَ اللِّسانِ على نَهْجِ البيانِ[٧] . فهى تتمشَّى مع طِباعِ الطِّفلِ الشَّرقِيِّ وغرائِزِه حَتَّى يترَعْرَعَ . وتَجْعَلُ الحَلْقةَ مُتَّصلةً بين المَدْرسةِ والبيتِ فى قِصَصٍ مُناسِبةٍ مُتماسكةٍ مع نفسيَّةِ الطِّفل وعَقْليَّتِهِ وبيئَتِهِ وما يَهْوَى سماعَهُ أو يَميلُ لِوَعْيِه ، بأسْلوبٍ صحيحٍ فصيحٍ ، إذا حَفِظَهُ الصَّبِيُّ صَغيراً نفعَهُ كبيراً[٨] . ومِن ثَمَّ يَشُبُّ الطِّفلُ ، وقد صَحَّتْ مَلَكَتُه ، وأُشْرِبَتِ الفُصْحَى فِكرَتَه[٩] .

---

(١) أحمد لطفى السيد   (٢) أحمد نجيب الهلالى   (٣) جعفر ولى
(٤) على ماهر   (٥) محمد العشماوى   (٦) محمد بهى الدين بركات
(٧) محمد توفيق رفعت   (٨) محمد حلمى عيسى   (٩) محمد على علوبة

مكتبة الكيلانى

مَجْمُوعاتُها : تُسايرُ التِّلْميذَ فِى نَحْوِ مائَةٍ وَخَمْسِينَ قِصَّةً ، رائِعَةَ الصُّوَرِ ، بَديعَةَ الإِخْراجِ ، مُتَدَرِّجَةً بِهِ مِنْ رِياضِ الأَطْفالِ إِلَى خِتامِ التَّعْليمِ الثَّانَوِيِّ . ثُمَّ تُسْلِمُهُ إِلَى مَكْتَبَةِ الكيلانِيِّ لِلشَّبابِ .

مادَّتُها : تُقَوِّمُ الْخُلُقَ ، وَتُرَبِّى الذِّهْنَ ، وَتُعَلِّمُ الأَدَبَ .

فَنُّها : يَشُوقُ الْقارِئَ وَيُمْتِعُهُ ، وَيُحَبِّبُ الْكِتابَ إِلَيْهِ .

لُغَتُها : تُنَمِّى مَلَكَةَ التَّعْبيرِ ، وَتَطْبَعُ اللِّسانَ عَلَى فَصيحِ الْبَيانِ .

ثَوْرَةٌ رَشيدَةٌ ، أَجْمَعَ عَلَى تَأْييدِها وُزَراءُ الْمَعارِفِ وَزُعَماءُ التَّعْليمِ وَقادَةُ الرَّأْيِ فِى الشَّرْقِ ، وَكِبارُ الْمُسْتَشْرِقِينَ وأَعْلامُ التَّرْبِيَةِ فِى الْغَرْبِ .

أَوَّلُ مَكْتَبَةٍ عَرَبِيَّةٍ عُنِيَتْ بِتَنْشِئَةِ الطِّفْلِ عَلَى أَحْدَثِ أُسُسِ التَّرْبِيَةِ الصَّحِيحَةِ . تَوالَتْ طَبَعاتُها الْعَرَبِيَّةُ ؛ فَتَثَقَّفَ بِها الْجِيلُ الْجَديدُ فِى بِلادِ الْعُرُوبَةِ ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْها بَيْتٌ عَرَبِيٌّ .

تُرْجِمَتْ إِلَى أَكْثَرِ اللُّغاتِ الشَّرْقِيَّةِ وَبَعْضِ اللُّغاتِ الْغَرْبِيَّةِ .

مَدْرَسَةٌ حُرَّةٌ ، إِذا عَرَفَها التِّلْميذُ ، سَعَى إِلَيْها بِلا تَرْغيبٍ وَلا تَرْهيبٍ .

كانَتْ أَكْبَرَ أُمْنِيَّةٍ لِلآباءِ ، وَهِىَ الْيَوْمَ أَشْهَى غِذاءٍ ثَقافِيٍّ لِلأَبْناءِ .